

دور مؤسسات التعليم الحرة في إرساء الهوية الجزائرية

✍ عمر عروي

جامعة ابن خلدون بتيارت

ملخص:

إن مدارس التعليم الحرة هي تلك المدارس التي كان فيها التعليم باللغة العربية، وكانت تابعة للأفراد والمؤسسات والمنظمات الشعبية، وكان الشعب مؤسساً لها وممولاً ولا تخضع لإدارة الاحتلال الفرنسي إلا من ناحية النظام العام، وقد سميت بالحرة تمييزاً لها عن المدارس الحكومية الرسمية التي يجري فيها التعليم باللغة الفرنسية فقط، وقد بناها عدد من الأفراد والجمعيات الفاعلة التعليمية والخيرية كجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أسهمت في إحياء الثقافة الإسلامية، وبعث النهضة التعليمية العربية، وتكريس وإرساء الثوابت الوطنية (اللغة والدين والوطن)، والتي دأب الاحتلال الفرنسي قراية قرن ونيف على محاولة طمسها ومحوها، كما كان للزوايا دور فعال في نشر التعليم، وتجسيد الانتماء الوطني، ومن بين المدارس التي أنشئت آنذاك مدرسة الشبيبة الجزائرية التي تأسست سنة 1927م بالجزائر العاصمة، ومدرسة السلام 1929م والمدرسة العربية القرآنية 1929م، وغيرها من المدارس التي كانت منتشرة عبر التراب الوطني، والتي كان فيها رجال تحملوا عبء نشر العلم ومجاهدة الاحتلال بكل شيء أمثال محمد العيد آل خليفة ومحمد بن العابد الجلاي الذي اختاره بن باديس ليكون معلماً في هذه المدارس وأعضاء وشيوخ الزوايا... وبهذا كان من الملاحظ أن الدراسات حول الهوية كثيراً ما بينت أهمية المؤسسات في بناءها وإرساءها، من هنا كانت دراستي تحاول كشف اللثام عن كل ما رسّخ هوية الجزائري وجسّد انتماءه الوطني والإسلامي في ظل هذه المدارس التعليمية التي تفوقت على ترسانة الاحتلال الفرنسي وقواته العديدة في طمس هوية الإنسان الجزائري.

ثقافة الهوية ودور المؤسسة:

تستعمل كلمة (هوية) بضم الهاء لتعبر عن خاصية المطابقة: مطابقة الشيء لنفسه، أو مطابقة لمثيله، وفي المعاجم الحديثة فإنها لا تخرج عن هذا المضمون، فالهوية هي: حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة، المشتملة على صفاته الجوهرية، والتي تميز عن غيره، وتسمى أيضاً وحدة الذات.⁽¹⁾

وفي كتابه "التعريفات" يُعرّف الجرجاني (السيد الشريف علي بن محمد) الهوية بأنها: "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق إشتمال التّواة على الشجرة في الغيب المطلق"⁽²⁾

خلاصة الأقوال:

إن الهوية الثقافية والحضارية لأمة من الأمم، هي القدر الثابت، والجوهري والمشارك من السمات والقسمات العامة، التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، والتي تجعل للشخصية طابعاً تتميز به عن الشخصيات الأخرى.⁽³⁾

إنّ الهوية القومية يقصد بها السمات التي يتمسك بها مجتمع من المجتمعات وتميزه عن غيره من المجتمعات، وهذه الهوية قد تأصلت عبر العصور نتيجة عدة تراكمات متتالية تعرض لها المجتمع وتتمثل في جانبين هامين هما الجانب المادي وما يتضمن من معارف وعلوم وفنون واكتشافات واختراعات وابتكارات، والجانب المعنوي الذي يتضمن عادات المجتمع وقيمه وأخلاقيات أفراد وسلوكياتهم، وكلما تأصلت الهوية القومية في نفوس أفراد مجتمع ما ساعد ذلك على التأثير في ثقافات المجتمعات الأخرى.

¹ (خالد روشة، أزمة الهوية، موقع moslim.net)، وانظر المعجم الوسيط، 2/998

² - الجرجاني (السيد الشريف علي بن محمد): التعريفات، مكتبة مصطفى الباني الحلي، القاهرة، 1938

³ - خالد روشة، أزمة الهوية، موقع moslim.net.

وأما المحاولات التي تقوم بها المجتمعات لتدمير الهوية القومية لمجتمعات أخرى أو النيل منها سواء بالسيطرة أم القهر أم الإذلال فإنها تؤدي في النهاية إلى فقدان التماسك الاجتماعي، والتوحد المعنوي بين البشر والأرض والظروف والإمكانات.⁽¹⁾

فالهوية القومية تمثل مجموع خصائص وسمات الأفراد وبالتالي فهي تمثل خصائص كل شعب، فهي تعبر عن خصوصية وتميزات وانتماءات كل شعب عن غيره من الشعوب وهي تقوم على أسس أربعة هي: مفهوم الأمة وخصوصية الثقافة، والذاكرة الوطنية، والحدود الجغرافية.

مكونات الهوية:

إذا كانت الهوية هي حقيقة الشيء المشتملة على صفاته الجوهرية والتي تميزه عن غيره، فلا شك أنها تختلف باختلاف مكوناتها وعناصرها. والذي يصوغ هوية المسلم ويجعله متميزا عن غيره، "أربعة عناصر هي الدين، واللغة، والتاريخ، والبيئة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والمناخية".⁽²⁾

الدين: لا شك أن سلوك الإنسان في الحياة ينبني على تصوره لنفسه أولا (ما أصله، وما مصيره)، وتصوره للإله الذي يعبده، ثم تصوره للكون وللحياة. والدين هو أول المكونات التي تشكل هذا التصور. فالإنسان الذي يعتقد بوجود إله واحد، بيده الضر والنفع، والموت والحياة، والرزق، والأجل، والذي يعتقد بأن هناك يوم يجازى فيه الناس على أعمالهم خيرا كانت أو شرا، سيكون همه كيف يرضي هذا الإله، وكيف يتجنب السوء والظلم والآثام خشية الجزاء الأخروي، وبالتالي يكون صالحا في نفسه، مصلحا لغيره، قائما بالحق والعدل في الأرض، ممثلا للخير والبر، ناهيا عن الشر والفجور.

¹ . جريدة النصر، ع 4، 1999، ص 71.

² -علي بأعباد، الهوية العربية الإسلامية في ظل العولمة، صحيفة 26 سبتمبر الإلكترونية، العدد 1427، 26seb.net

اللغة: تعد اللغة إحدى الركائز الأساسية للهوية، "وهي الوسيلة الأساسية في العلاقات الإنسانية من حيث التوصيل أو النقل والتعبير عن الأفكار والمعاني والرغبات (1). واللغة العربية هي وعاء الثقافة لكل الشعوب الناطقة بها، من خلالها يتم تلقي المعرفة، وتدوينها ونقلها إلى الأجيال، وبها يمارسون عباداتهم وشعائرتهم. وبها يكتبون آدابهم وقصصهم وأشعارهم إلى غير ذلك. "والقرآن الكريم منح اللغة العربية سلطة مكتوبة وصفة مقدسة قائمة على إلهام آت من السماء...، بينما يقال إنها ثابتة موحى بها، أنزلها الله على عبده لكي يتفاهموا ويتعارفوا، واتخذت صفة القداسة سلطة أقوى بفضل تحول اللغة إلى لغة الطقوس الدينية(2). وتعتبر هذه اللغة التي وسعت كتاب الله لفظا وغاية، وحملت نصه المعجز محفوظة بحفظ القرآن الكريم، وباقية ببقائه.

التاريخ: نقصد بالتاريخ ذلك السجل الحضاري للأمة العربية المسلمة، ويشمل إنجازاتها المعنوية والمادية وهذا كله رصيد ثر للفرد، ومكون هام من مكونات الهوية، لأن الإنسان لا ينفك يفتي أثر آبائه ومآثرهم حتى ليكون ذلك جزءا من شخصيته.

"ودراسة التاريخ الإسلامي تغذي الروح الإسلامية وتقوي معانيها في نفوس الجيل بكل أبعادها النظرية والتطبيقية، وبالتالي يكسب الثقافة الإسلامية سمة الأصالة والانتماء كما يشكل رصيذا ضخما من المعلومات والمعارف الذي تنمو به ثقافة المسلم(3).

البيئة والوطن: وتضم البيئة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فلا شك أن البيئة التي يعيش فيها الفرد تؤثر على بنائه الفكري والعقلي، بالقدر الذي يؤثر فيه التاريخ.

1 - الخوري، نسيم، الإعلام العربي، وانهيار السلطة اللغوية، ص 81

2 - انظر الخوري، نسيم، الاعلام العربي وانهيار السلطة اللغوية، ص 135، نقلا عن ابراهيم مذكور، وكان من الافضل استبدال عبارة الطقوس الدينية، بالشعائر أو العبادات.

3 - صالح هندي، الثقافة الإسلامية، ص 96

إنّ المدرسة هي البيئة التعليمية الأولى ⁽¹⁾ هي ذاتها مصنع الشخصية الوطنية، فيها تتشكل الهوية الوطنية الأولى، فكل عنصر من عناصر العملية التعليمية له دوره في تشكيل شخصية وهوية المتعلم وينبغي لهذه العناصر أن تتكامل؛ لا أن تتضارب أو تتنافر، كما ينبغي عليها أن تتسم بالمرونة والانفتاح؛ لا الانغلاق والتشدد، فإلغاء الذات/ الهوية الوطنية ⁽²⁾ يساويه تماماً تضخيمها بحيث لا ترى نواقصها، إنّ الحكمة التعليمية - ممثلة في السياسات وتطبيقها- ينبغي لها أن تعي جيداً مسارها وهو مسار قد لا يسير بشكلٍ أحادي أو مستقيم، وقد لا يكون مساراً واحداً ثابتاً جامداً.

إنّ التعليم ليس هو الهوية الوطنية، لكنه المصنع الأهم في تشكيلها وصناعتها وإخراجها إخراجاً حسناً، كما أنّ الهوية الوطنية لا تموت في غياب التعليم لكنها تنقص كثيراً، فحينما يصبح التعليم رهينة المقارنات المالية مهما علت رتبته أو عظمت فوائده، علينا أن نقر أن المنظومة القيمية للمجتمع برمته في خطر.

مما لا شك فيه أنّ المنهاج هو أداة التعليم الأهم التي يمكن خلالها تحقيق الأهداف التربوية للتعليم، لكنه يبقى أداة عاجزة عن إحداث تحولات في سلوك وتوجهات الطلاب في غياب رؤية علمية / وطنية تعزز من دور المعلّمة في تنمية الإحساس بالهوية والبناء على الجانب المعرفي البسيط المتضمن في المناهج وربطه بالواقع الجزائري الاجتماعي والثقافي والسياسي، ونحن هنا لا نتحدث فقط على مناهج التربية الوطنية أو التربية المدنية أو التاريخ الجزائري، على الرغم من حصتهم الكبيرة في هذا الإطار، لكننا نتحدث عن كل أنواع المناهج بما فيها العلوم العلمية والرياضية.

كما أنّ السياسات التعليمية المتبعة سواء تلك الصغرى على المستوى المدرسة أو الكبرى على مستوى البيئة التعليمية الوطنية - بالمعنى

¹ . باعتبار المنهج الحديث.

² . للهوية عدة مصطلحات منها: الإنية كما ذكره ابن سينا، والذاتية، والشخصية...

الجغرافي هنا -تلاعب دورها في تقليص الشعور بالهوية الوطنية فأداء المدرس وتوجهاته وآرائه، بل أقول أكثر من ذلك احباطاته وآماله، تفتحه وانغلاقه، تسلطه وتسامحه، جميعها تمارس تأثيراتها المرئية والمخفية في تعزيز أو تقويض علاقة الطالب /ت' بوطنه/ها.

جمعية العلماء المسلمين ودورها الريادي في البنائي:

لقد أخذت جمعية العلماء المسلمين وعلى رأسها الشيخ عبد الحميد ابن باديس تعليم الجزائريين بدءا بالشرق الجزائري، بمنهج عظيم ألا وهو منهج التصفية والتربية، هذا المنهج الذي يقوم على تصفية العقول والأفكار الزائفة من الزيف والتحريف الذي شاب الكثير منها في ظل عمل بعض الزوايا التي انتشرت فيها البدع والخرافات⁽¹⁾ ثم التربية بجمعية التعليم وهي تربية النشء وصنع الرجل الذي سيصبح فيما بعد مجاهدا ببندقيته أو سيفه في سفاح الجبال، وقد قام تعليم الجمعية على زرع الثقة والأمل في الجماهير الجزائرية بعدما أصابها اليأس ودب إليها الحزن ووالتها النكبات والإحباطات، لما آل إليه الواقع المعيش في الجزائر، ووضع الأسس الفكرية الحضارية النوعية التي تحتاج إليها هذه الأمة دون التفريط بالقيم الروحية والقومية والإنسانية التي تصوغ ذاتها وهويتها وتغني عطاءها الحضاري.

إن مرحلة التحرير والاستقلال تستدعي من الجزائري أن يعي ذاته في إطاره الوطني الجديد، الذي اتخذ شكلاً مستقلاً بمعزل عن محيطه العربي، وفي نفس الوقت آن له أن يتمسك بشعاراته القومية التي كانت نتيجة تبلور ثقافة إسلامية أصيلة في نفسه أولاً وفي بيئته ثانياً لتنتج له هوية وطنية.

التربية تعني تنشئة الإنسان شيئاً فشيئاً في جميع جوانبه وفق المنهج الإسلامي، قال الإمام البيضاوي: (التربية هي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً

¹ . في هذا الأمر نحن لا ننكر عمل بعض الزوايا التي راحت تواجه الاستعمار بكل ما أوتيت من قوة وأخذت على عاتقها تعليم الجزائريين، وإيواء غاري السبيل والمجاهدين إبان ثورة التحرير وقبلها.

فشيئا⁽¹⁾) وقال الراغب الاصفهاني: (التربية إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام)⁽²⁾) ومن هذين التعريفين يتضح أن التربية تدور حول الإصلاح والقيام بأمر المربي وتعهده ورعايته بما ينميه وأن المفهوم التربوي مرتبط بجميع تلك المعاني.

ولكن هل الجانب المعرفي وحده يكفي ليسلك الإنسان طريق الخير والصلاح؟ في الوقت الذي يلاحظ فيه أن بعض الناس يعرف الخير ويحيد عنه ويعرف الشر ويقترب منه ويأتيه فما العلة من ذلك؟

إن للممارسة العملية التربوية أهمية كبيرة في حق الفرد لأنها مسؤولية من استرعاه الله رعية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته⁽³⁾). وقد بعث جمعية العلماء المسلمين من جديد الثقافة الإسلامية المبنية على الكتاب والسنة ومن ثمة مجابهة العدو واسترداد الحق المسلوب.

أهمية بعث الثقافة الإسلامية من طرف جمعية العلماء المسلمين:

إن الغاية من تدريس وترسيخ الثقافة الإسلامية من طرف جمعية العلماء المسلمين وعلى رأسها الشيخ عبد الحميد ابن باديس، في ضوء منهجه التصفية والتربية هي إيضاح التصور الإسلامي الشامل للكون والحياة والإنسان، وللألوهية والعبودية، وربط حاضر المسلم بماضيه، ليكون في تعامله مع ربه وفي تعامله مع نفسه ومع غيره، وفي تعامله مع الكون من

¹. البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ص 246.

². الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن الكريم، ص 148.

³. صحيح البخاري، ج 1، ص 284.

حوله، منطلقاً من المبادئ التي رسمها له الكتاب الكريم وسنة النبي عليه الصلاة والسلام، وسيرة سلفه الصالح، ومن جهة أخرى إبراز أثر الحضارة الإسلامية في الأمم الأخرى، وكيف استطاعت الثقافة الإسلامية نشر الخير والعدل والتمدن والتحضّر في العالم اجمع، بما تمثله من قيم سامية ومبادئ نبيلة، وأخلاق عظيمة يمتد أثرها إلى العدو والصديق، ويتفنى ظلالها الموافق والمخالف. كل هذا يجعل الطالب المسلم يفخر بهويته ويفخر بثقافته، ويدفعه ذلك إلى المحافظة عليها، والتحرك لنشرها متى استطاع وتيسر له ذلك. ولعل ترجمة هذه الأهمية إلى أهداف تفصيلية⁽¹⁾ تجعلها أكثر عملية ووضوحاً، كما يلي:

1. إبرازُ النظرة الشمولية للإسلام، بوصفه منهجاً شاملاً لجميع جوانب الحياة، أساسه التوحيد، والتخلصُ من النظرة الجزئية للإسلام، التي تقصره على بعض جوانب الحياة.
2. تعميقُ انتماء المواطن إلى الإسلام، وربطُهُ بكتاب الله وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - وتبصُّرُهُ بما في هذين المصدرين الرئيسيين من أصول القيم الخلقية والحضارية، وذلك من أجل تحصينه - اعتقاداً وفكراً وسلوكاً - ضد التيارات الفكرية المعارضة للإسلام.
3. تجليةُ مواقف الإسلام من قضايا العصر، خاصة في مجالات العلوم المختلفة، وحركات الفكر، ونظم الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ...، ونقدها من المنظور الإسلامي.
4. بيانُ تفوقِ الإسلام وتميزه على المذاهب الفكرية و(الأيدلوجيات) في كافة شؤون الحياة، وإظهارُ قدرته على تحقيق السعادة الإنسانية؛ في مقابل إخفاق تلك المذاهب و(الأيدلوجيات).

¹ - هذه الأهداف التي ذكرها الأستاذ محمد المبارك في كتابه نظام الإسلام، ص 24-25، وهي تشابه في مجملها الأهداف الموضوعة لمقرر الثقافة الإسلامية لجامعة السلطان قابوس، لكننا اخترنا عبارة الأستاذ المبارك لأنها أشمل وأكثر دقة، موقع الألوكة الإلكتروني، وأنظر توصيف مقرر الثقافة الإسلامية، دليل قسم العلوم الإسلامية، جامعة السلطان قابوس لعام 2005-2006، ص 14

5. إعطاء الجزائري صورة وافية عما صنعتها رسالة الإسلام العامّة الشاملة في الحياة الإنسانية، من تحريرها للبشر من الوثنيات والخرافات، وإنقاذهم من التخلف الفكري، والتفكك الاجتماعي.
6. تشخيص حال الأمة الإسلامية في مجالي الفكر والسلوك والحركة الحضارية، وبيان مواطن الخلل فيها ومنهج العلاج.
7. وقد نتج عن هذا المنهج القويم أصالة فكرة قوامها: عربية اللغة، إسلامية الدين، جزائرية الوطن.

فرنسا وسياسة إقحام الفرنسية في التعليم الحر:

تنعكس الطبيعة التي تتمّ فيها تداخل الثقافات على شخصية الأفراد، فإذا كان الرسوخ في الثقافتين عميقاً ومُتأصِّلاً، يكون الانتقال من إحدى اللغتين إلى الأخرى ومن إحدى الثقافتين إلى الأخرى بصفة غريزية دون الشعور بأيّ تفكك، وقد عمدت فرنسا من خلال سياساتها المتعددة دمج اللغة الفرنسية كلغة رسمية في مؤسسات التعليم الجزائرية الحرة⁽¹⁾، فقد سعت فرنسا إلى ترسيخ الازدواجية الثقافية في أوساط السكان الأصليين بالقوة، وفي الوقت ذاته تُغذيهم الرفض والمعارضة اللذان سُجِّلا في إطار المقاومة، وبعد الاستقلال ظهرت سلبيات هذه السياسة المُتناقضة الشباب الذين تفككوا ثقافياً وأصبحوا يشعرون بأنهم أجانب عن الثقافة العربية الإسلامية وعن السياق الثقافي والنموذج الفرنسي.

إن النظام التعليمي الذي يتبنى الازدواجية اللغوية ينبغي أن يُدرك أن أنظمة القيم تختلف من مجتمع لآخر (خاصة إذا كانت هذه المجتمعات متباعدة جغرافياً وعقائدياً وإيديولوجياً).

¹. الزوايا، الكنائس، بعض مدارس جمعية العلماء المسلمين.

بالنسبة لمجتمعاتنا، فإن الأغراض الأساسية من التربية تتمثل في تكوين الفرد الوطني المسلم الذي يمثل لتعاليم دينه، ويكون فردا مبدعا لتحويل بيئته حسب احتياجاته وحاجات مجتمعه، ولهذا فليس من السهل تبني نموذج ثقافي أو نظام لغوي لمجتمع مغاير والعمل على نشره في إطار نظام تربوي شامل، فظهر فيما بعد بما يصطلح عليه بالتوجيه المدرسي بصورة فعالة سنة 1960، بعد إصلاح التعليم سنة 1959 أي خلال الفترة الاستعمارية، وقد وجد آنذاك لتوجيه أبناء المعمرين بالدرجة الأولى والقليل من الجزائريين وقد كان أغلب القائمين بالتوجيه من الفرنسيين الذين كانوا يطبقون مقياس العصبية والتمييز العنصري على التلاميذ الجزائريين لم تكن كيفية على البيئة الجزائرية، ولهذا كانت أحكامهم على الجزائريين أحكاما خاطئة نابعة من الفكر الاستعماري، الذي حط من قيمة الشعب الجزائري وقدراته.

لأن التعليم الحر⁽¹⁾ أصبح يشكل مشكلة كبيرة بالنسبة لفرنسا، وقد حاول الكثير من الساسة الفرنسيين إيجاد الجواب للسؤال المعضلة: هل نعلم الجزائريين لإثبات نظرية "فرنسا حاملة مشعل الحضارة والرقى؟" أم نبقى على الجزائريين جهلهم وبالتالي تفادي استفاقة محتملة وانتفاضة حتمية، وعلى هدي هاتين النظريتين ظلت سياسة التعليم في الجزائر المحتلة متأرجحة مضطربة غير واضحة المعالم.

ولذلك هبّت الجمعيات المحلية والوطنية منذ العقد الأول من القرن الماضي لفتح المدارس الحرة لتعليم أبناء البلاد، وعند اندلاع ثورة الفاتح من نوفمبر 1954 كان التعليم العربي الحر في أوج نشاطه وحيويته تحت إشراف

¹ . هو التعليم الذي كانت تشرف عليه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وبعض الجمعيات المحلية الأخرى. ومدارس التعليم هي التي كان فيها التعليم باللغة العربية، وكانت تابعة للأفراد والمؤسسات والمنظمات الشعبية، وكان الشعب مؤسسا لها وممولا ولا تخضع لإدارة الاحتلال الفرنسي إلا من ناحية النظام العام. وقد سميت بالحرّة تميّزا لها عن المدارس الحكومية الرسمية التي يجري فيها التعليم باللغة الفرنسية فقط، وقد بناها عدد من الأفراد والجمعيات الفاعلة التعليمية والخيرية كجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أسهمت في إحياء الثقافة الإسلامية، وبعث النهضة التعليمية العربية، وتكريس وإرساء الثوابت الوطنية (اللغة والدين والوطن).

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وغيرها من الجمعيات المحلية في ربوع الوطن، وكرد فعل لما آل إليه وضع التعليم الحر وإحساس فرنسا بالخطر العظيم بادرت إلى غلق المدارس ومصادرة مقرات بعض الجمعيات وسجن الكثير المعلمين، ومع ذلك فقد استمر هذا النوع من التعليم يؤدي مهامه خاصة في المدن، ومنذ سنة 1956 أخذ قادة الثورة يهتمون بشؤون التعليم ويقومون بتنظيمها خاصة في القرى والأرياف المتضرر الأكبر من الاحتلال وعساكره.

وقد انعكست هذه الوضعية على التعليم العربي الحر بطبيعة الحال وكان أول ضحية لذلك مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومعهدا⁽¹⁾ حيث عطلوا جميعا منذ سنة 1957.

وبقيت جمعيات أخرى تشرف على بعض المدارس، التي ظلت تؤدي مهمتها في جو من الخوف والمداهمات المفاجئة من طرف الجيش الفرنسي والاعتقالات لبعض معلمها، غير أنها بقيت مفتوحة تحت أغشية مختلفة ووفرت لبعض أبناء الجزائريين قسطا من التعليم نجوا بفضلها من ظلمات الجهل وضباب الشوارع، وقد دعا بعض زعماء الثورة إلى مقاطعة المدارس الفرنسية خاصة تلك التي تشرف عليها الفرق الإدارية المختصة (S.A.S)⁽²⁾ (هوجمت بعض هذه المدارس وحُرقَت)، كما صدر الأمر للأولياء يمنع أبنائهم من المشاركة في المخيمات الصيفية التي كانت السلطات الفرنسية تقيمها هنا وهناك في محاولة لكسب بعض الأهالي، وفي نهاية شهر ماي من سنة 1956 صدر الأمر من قادة جبهة التحرير الوطني إلى الثانويين والطلبة والجامعيين بالدخول في إضراب مفتوح عن الدراسة، ومقاطعة الامتحانات⁽³⁾ وقد

¹ . معهد عبد الحميد بن باديس أسسته الجمعية سنة 1947 ليستقبل أبناء المدارس الذين أنهوا تعليمهم الابتدائي لمواصلة دراستهم الثانوية.

² . - Section d'Administration Spécialisée .

³ . حول هذا الموضوع صدر مقال في جريدة المجاهد بعنوان "إن الجبهة لن تكون مقيمة إذا كانت حاملة لشهادة عليا" في نهاية شهر جوان من سنة 1956. وقد ذكر النص كاملا الكاتب GILBERT MEYNIER

شهدت هذه الفترة التحاق عدد كبير من الطلبة بالثوار في الجبال، غير أن هذا القرار لم يلق الموافقة من كل قادة الثورة، فقد كان هناك من يرى بأن هؤلاء الطلبة سيكونون إطارات الغد بعد الاستقلال، وبالتالي فإن مكانهم الطبيعي على مقاعد الدراسة وليس في الجبال.

المؤسسات الوقفية الحرة في الجزائر:

منذ دخول المستعمر الفرنسي أرض الجزائر شرع في تقويض دعائم نظام الوقف⁽¹⁾، وتشتيت شمله وهدم معالمه، ففي ديسمبر 1830 أصدر الجنرال الفرنسي " كلوزيل " قرارا بفسخ أحباس مؤسسة الحرمين بدعوى أن مداخلها تنفق على الأجانب، وأن لها أدوارا مشبوهة كبث روح المقاومة، كما تضمن القرار انتزاع أوقاف الجامع الكبير، ونصت مادته السادسة على تغريم كل من لا يدلي بما عنده من أحباس وجاء في تقرير وزير الحربية الفرنسي المؤرخ في 23 مارس 1843 أن مصاريق ومداخل المؤسسات الدينية تضم إلى ميزانية الحكومة الفرنسية.

ورأت السلطات الفرنسية في مؤسسات الأوقاف أحد العقبات الصعبة التي تحد من سياسة الاستعمار والتي تحول دون الإصلاحات الكبرى، والتي وحدها القدرة على تطوير المناطق التي أخضعها قوة السلاح وحولتها إلى مستعمرة حقيقية، فنظام الأوقاف في نظر سلطات الاحتلال الفرنسي يتنافى مع المبادئ الاقتصادية التي يقوم عليها الوجود الاستعماري، وذلك لكون الوقف كان في حد ذاته جهازا إداريا ووسيلة اقتصادية فعالة تحول دون المساس بالمقومات الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية للجزائريين، وهذا ما دفع قادة الجيش الفرنسي للعمل على مراقبة المؤسسات الوقفية وتصفيتها، والاستيلاء عليها باعتبارها أحد العوائق التي كانت تحول دون تطور الاستعمار

¹ . تعتبر المؤسسات الوقفية كشكل آخر للمؤسسة تعليمية حرة باعتبار التمويل وتوفير الغطاء الاقتصادي.

الفرنسي، وفي هذا يقول أحد الكتاب الفرنسيين : " Zeys " (إن الأوقاف تتعارض والسياسة الاستعمارية وتتنافى مع المبادئ الاقتصادية التي يقوم عليها الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر)، ولهذا بالذات عملت الإدارة الفرنسية جاهدة على إصدار سلسلة من المراسيم والقرارات تنص على نزع صفة المناعة والحصانة عن الأملاك الوقفية .

دور الزوايا في إرساء الهوية الجزائرية:

إن الحديث عن الزوايا يجب أن ينصرف إلى الزوايا العلمية التي تعتبر مراكز للإشعاع العلمي ومنابع للهداية وحصونا منيعة تحفظ هوية الأمة وتحميها من جميع أشكال الدمار، ولا ينصرف إلى الزوايا التي تمكن للبدع وتنشر المناكر.

إن لفظ الزاوية هو موضع أُعد للعبادة ولتعليم القرآن الكريم، يشمل على مرافق لإيواء الطلبة وعابري السبيل، وقد ظهرت هذه المؤسسة الدينية والاجتماعية نتيجة ظروف هيئت لها الجو لنشأتها، أسسها علماء ومصلحون لأداء رسالتها الدينية والاجتماعية والحضارية.

ومن تلك الزوايا العلمية التي ما فتئت تحارب الاستعمار الفرنسي بصنع المجاهدين الأحرار وبث ثقافة التصدي لمحاولات فرنسا طمس هوية الجزائري، ومنها:

خاتمة:

إنّ التعليم هو اللبنة الأولى في تشكيل وبناء شخصية الإنسان وصقلها ووضعها على الطريق الصحيحة لتساهم في عملية التنمية، لذلك فلا قيمة ولا أهمية لتعليم دون هوية في ظل وجود ثقافات أخرى متنوعة ومهيمنة وفاعلة، باتت تلعب دوراً وتأثيراً سلبياً في حجب الهوية الوطنية وتعزيز الانتماء الوطني والافتخار بقيمه، وعليه ثمة مسؤولية يجب تحمّلها نحو استنهاض بيئة تحفيزية تعيد أبنائنا وبناتنا إلى هويتهم الوطنية، التي يجب أن

تحظى بالاهتمام الأكبر من قبل المؤسسة التعليمية وواضعي السياسات التعليمية أولاً وثانياً من قبل المجتمع بأسره أفراداً وجماعات ومؤسسات، وبحث سبل الحفاظ عليها ومواجهة الأخطار التي تهددها وأسباب ذلك، دون تعصب مفرط أو إهمال قاتل.

إنّ التأكيد على عنصر الهوية في ظل هذه التحوّلات، فيه حماية للمشروع الوطني برمته، وفيه حماية للسلم الاجتماعي وتعزيز لقيم الوحدة والانتماء في مواجهة التشتت والاغتراب الوطني- إن جازت التسمية - كما أنه لا قيمة لأية مقاومة تخرج التعليم من قائمة أهدافها، بل على العكس من ذلك يجب أن يكون هدفاً أول، متفقٌ حوله في السلم والحرب، في التنمية وفي الطريق إلى التنمية، لا أن يكون محل صراع وتجادب، ولا أداةً للهيمنة والإقصاء.

إذا كنا نعاني اليوم من كثير من مظاهر الاستلاب تجاه الغرب فلأننا نأخذ منه النتائج والثمرات ونعرض عن المبادئ والأسس، نستورد منه لنستهلك وليس لنغرس ونستنبت. ومن البديهي أن عملية الغرس والإنبات تتوقف على إعداد التربة الصالحة والتربة الصالحة لا تستورد، وإنما تبنى وهي موازية للتعليم، باعتبار لا عبء للتعليم دون تربية ولا تربية دون تعليم، حتى وإن التربية دون تعليم ربما نكون موفقة إلى حد بعيد باعتبار أن التعليم خاصية يمتلكها رجال حملوا لواء العلم مهما كانت مجالاته.

ومن هنا كان على نظام التعليم الجزائري أن يعمل على تعزيز الربط بين العملية التعليمية والعملية التربوية لبناء الهوية الجزائرية والانتماء القومي تجاه السيل العارم من التيارات الفكرية التي تتصارع على خريطة العالم.